المحاضرة العاشرة: الشعر السياسي في المشرق والمغرب (الفتوحات، الخوارج، الشيعة، السجون، رثاء المدن)

مراجع المحاضرة:

- واضح الصمد: السجون وأثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلي
- حبيب مغنية: الشعر السياسي من وفاة الرسول- صلى الله عليه وسلم- إلى نهاية العصر الأموي.

أوضاع المسلمين بعد وفاة النبي- صلى الله عليه وسلم-:

في اللحظة التي أعلن فيها وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم-، برزت أمام المسلمين مشكلة خطيرة؛ هي اختيار الشخص المؤهل لقيادة المسلمين؛ هل يكون من الأنصار الذين آووا النبي في المدينة؟ أم من المهاجرين من قريش، أصحاب رسول الله.

انتهى الأمر إلى المهاجرين، بعد أن أنهى أبو بكر الجدال الذي كان دائرا بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة.

لكن المشكلة لم تنته، فالمهاجرون اختلفوا فيما بينهم حول اثنين لكل منهما فضل هما؛ أبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب ابن عم النبي - صلى الله عليه وسلم-وهناك شعر كثير سجل هذه المرحلة المضطربة. يقول هاشمي:

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف عن هاشم ثم منها عن أبي حسن

أليس أوَّل من صلى لقبلتكم وأَعلمَ الناسِى بالقرآن والسنن

كما طالب الأنصار بأن تكون الخلافة فيهم، ممثلة في زعيمهم سعد بن عبادة. ويرون أن عليا أحق بها إن لم تكن فيهم. يقول النعمان بن عجلان محاججا:

وكان خطاء ما أتينا وأنتم صوابا كأنَّا لا نَريش ولا نَبْري*

وقلتم حرام نَصْبُ سعد ونصبكم عتيقَ بني عثمان حلال أبا بكر

وأهلٌ أبو بكر لها خير قائم وأنّ عليّا كان أخلق بالأمر

وكان هوانا في عليٍّ وإنه لأهل لها من حيث ندري ولا ندري

* لا نؤثر في مجريات الأمور

وهذا بحمد الله يشفي من العمى ويفتح آذانا ثَقَلْنَ من الوَقْرِ

فلولا اتقاء الله لم تذهبوا بها ولكن هذا الخير أجمع للصبر

ولم نرض إلا بالرِّضا ولربَّما ضربنا بأيدينا إلى أسفل الصَّدرِ

وكان لحكمة الإمام علي، وحرصه الشديد على وحدة المسلمين، أن يضع حدا لهذا السجال. فقد لزم علي داره، ثم بادر إلى مبايعة أبي بكر، وتوالى من بعد مؤيدوه من بني هاشم ، والأنصار وغيرهم.

خلافة عمر: توفي أبو بكر بعد خلافة استمرت سنتين، وقد استخلف من بعده عمر بن الخطاب ، خشية اختلاف المسلمين فيما بينهم، فشعر علي بالقهر. لكن أوضاع الدولة الإسلامية – التي تخوض حربا مصيرية في بلاد الرافدين، وبلاد الشام، وبلاد النيل، تواجه فيها قوتين عظميين هما الفرس والروم– لا تسمح بخلافات داخلية تذهب بوحدتها، فخروج علي على بيعة عمر يؤدي إلى الفرقة.

وقتل عمر بن الخطاب سنة 23 هـ بطعنات أنفذها فيه مولى لأحد أمراء بني أمية هو؛ أبو لؤلؤة المجوسي.بعد أن أمضى عمر بن الخطاب عشر سنوات في الخلافة.

خلافة عثمان بن عفان: كان تولي عثمان بن عفان الخلافة مكسب عند الأمويين، فهو ينتمي إلى الأسرة الأموية، التي كانت تتحين الفرص لاسترجاع مكانتها التي أفقدها إياها الإسلام لمعاداتها الشديدة النبي، وذلك قبل أن تنهار مقاومتها، وتدخل في الإسلام.

وجد الأمويون في خلافة عثمان فرصة للتعويض عما افتقدوه من مكتسبات، فاجتمعوا حوله، فولاهم المراكز الحساسة في العاصمة وفي الأمصار.

كان عثمان بن عفان متقدما في السن، وكان بحاجة لمن يساعده ، ففضل أن يعتمد على أقاربه. كما أخذ ينفق على أقاربه من بيت المال.وقد تذمر الصحابة من سياسة عثمان، لانها تستبيح المال العام، وهي سياسة تنعدم فيها الرقابة وكانت نتيجتها عدم تمكن الخليفة من السيطرة على عماله.وأشار عليه الصحابة بالتخلي عن الخلافة لكنه رفض قائلا: ما كنت لأخلع سربالا سرْبَلَنِيه الله.

ثار عليه كثيرون، إلى أن قتل.

خلافة علي: بعد مقتل عثمان هرع القوم كلهم يقولون: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.ولم يكد علي يتسلم الخلافة حتى بادر إلى إصدار أمرين، هما:

1 – عزل ولاة عثمان، ومنهم معاوية بن أبي سفيان والي الشام.

2 - استرداد الهبات التي منحها عثمان لأقاربه من بيت المال.

وقد رفض علي أن يأخذ برأي الصحابة ، الذين أشاروا عليه بأن يبقي الولاة على ولايتهم حتى تأتيه طاعتهم وطاعة الجند في الأمصار. وأشار عليه ابن عباس أن يكتب إلى معاوية فيُمَنِّيه ويعده إلى أن يتمكن من خلافته. فأبى.

وقد شكلت سياسة علي الصارمة سخط كل من طلحة بن عبد الله، والزبير بن العوام، ومعاوية الذي تطلع للخلافة. وليس غريبا أن لا ترضي سياسة علي الإصلاحية الزعماء والسادة، الذين استغلوا خلافة عثمان، فحصلوا على مكتسبات عديدة.

اجتمع خصوم علي ومعهم السيدة عائشة، وشكل المتمردون جيشا قويا، تولت السيدة عائشة قيادته، وقد وجدوا في شخصها تأييدا معنويا قويا. وكانت معركة عنيفة، انتصر فيها علي على أصحاب الجمل.

عقبها بعد ذلك حرب صفين بين الإمام علي ومعاوية، كاد يكون النصر فيها لعلي لولا خدعة المصاحف، والقبول بالتحكيم.

وبعد التحكيم انشق على الإمام علي قسم من جنده، لأنه قبل التحكيم، سموا فيما بعد؛ الخوارج.

لم يكتف الخوارج باعتزال علي، بل أعلنوا عليه الحرب، وكفروه، ونشبت بينه وبينهم معارك عديدة. وفكر الخوارج في قتل كل من علي، ومعاوية، وعمرو بن العاص. أما اللذان ذهبا لقتل معاوية وعمرو بن العاص ففشلا، وقبض عليهما. وأما عبد الرحمن بن ملجم قد تمكن من الإمام علي .سنة 40هـ.

بويع بعدها الحسن بن علي بن أبي طالب، الذي خلع نفسه، وبايع معاوية. ليبدأ حكم الأمويين.

مفهوم الشعر السياسي:

كان لمقتل الخليفة عثمان واستيلاء معاوية على السلطة أن يصل بالأزمة السياسية، وبكل الأزمات التي أدت إليها واتصلت بها إلى درجة خطيرة من التعقيد. وقد أدى هذا النزاع إلى ظهور لون جديد من العصبية الإقليمية. فقد تكتل أنصار معاوية في الشام، وتجمع المتمردون على إمامة علي في الحجاز، فيما علي في العراق يعمل على الإصلاح ولم الشمل.وبعد حادثة التحكيم اعترض فريق من المسلمين عليها، ورفضوا نتائجها، وكفروا عليا ومعاوية، وخرجوا عليهما، وشكلوا جبهة سياسية عسكرية معادية لهما. وعندما انتقل الحكم إلى يزيد بعد موت أبيه معاوية، قتل الإمام الحسين وأصحابه.

هذه الأحداث المتلاحقة أدت إلى وضع أسس لتيارات أو فرق أو أحزاب سياسية- دينية- كان لها تأثير كبير في أحوال المسلمين ومن هذه الأحزاب:

1 - حزب الأمويين: مؤيدوه الأمويون أولا وبعض زعماء قريش وغيرها من القبائل، ومن عموم أهل الشام الذين استمالهم معاوية لطول إقامته بينهم، أيام ولاينه على بلاد الشام.

2 - الشيعة: هم الذين شايعوا أهل البيت؛ ممثلين خاصة في علي بن أبي طالب، وأبناءه

3 - الخوارج: هم جماعة من جند علي بن أبي طالب، خرجوا عليه بعد حرب صفين، وكفروه لقبوله التحكيم في نزاعه مع معاوية. شعارهم" لا حكم إلا لله" كانت بينهم وبين علي كثير من الحروب الدامية منها؛ موقعة النهروان. وكان كلما انتهى من جماعة منهم، ظهرت عليه جماعة أخرى، إلى أن اغتاله رجل منهم سنة 40هـ.

ظهرت منهم فرق عديدة، منها؛ الأزارقة، النجدات، الصفرية، الإباضية. ظلوا يشنون الغارات على الدولة الأمويةطيلة عهدها، وكادوا يقضون عليها أكثر من مرة، وتوصلوا إلى انتزاع أجزاء حكموها بأنفسهم.

وكانوا يعادون الأمويين عداء شديدا، ويرون أن محاربتهم والقضاء عليهم واجب ديني، يؤدي الاستشهاد في سبيله إلى الخلود في الجنة.

ويرى معظمهم أن الخلافة أو الإمامة ليست من حق فئة إسلامية دون غيرها من الفئات، وإنما يصح أن يتولاها أفضل المسلمين إيمانا وتقوى وعدلا، ولو كان عبدا حبشيا.

4 - حزب الزبيريين: نسبة إلى زعيمه عبد الله بن الزبير، وهو سيد من كبار سادات قريش، لازمه الطمع بالخلافة قبل استيلاء معاوية بن أبي سفيان عليها، ولم تندفع خالته السيدة عائشة في تأييد أصحاب الجمل إلا من أجل إيصاله إلى تبوئها.

زال هذا التيار بمقتل زعيمه، ومقتل أخيه مصعب في خلافة مروان بن الحكم.

شعر الحزب الأموي: دافع شعراء الحزب عن سياسة حكامه. ومن المواضيع التي طرقوها:

- مهاجمة الثوار الذين قتلوا الخليفة عثمان بن عفان، وتصوير الأمويين وكأنهم أصحاب الحق في الثأر له، بحجة أنهم أقرباؤه، وأولى الناس بالمطالبة بدمه.
- الاستعانة بالشعر في إرساء خلافة أموية وراثية. وهذا ما فعله معاوية الذي استعان بالشعر في تحقيق هذه الغاية. فراح شاعره مسكين الدارمي يمهد لبيعة يزيد شعرا. وصارت هذه الطريقة في تولية العهد التي اتبعها معاوية سنة أخذ بها الحكام الأمويون، فاعتمدوا جميعهم على الشعر لما يدبرون من مشاريع، فيمهد لها الشعراء، ليتحسسوا رأي الناس فيها، ويتبينوا مدى استعدادهم لقبولها.

– إضفاء صفات القداسة على خلفاء بني أمية، وتعظيم شأنهم، والمبالغة في ذلك. يقول الأحوص يمدح عبد الملك بن مروان:

تخيره رب العباد لخلقه ولیا وكان الله بالناس أعلما

أما الفرزدق فقد استعار مبادئ الحزب الشيعي– الذين عرف عنهم تقديسهم لآل البيت– وألصقها بالأمويين، فجعلهم خير الشعوب، وجعل يزيد بن عبد الملك خليل الله، ولو أن محمدا — صلى الله عليه وسلم– لم يكن آخر الأنبياء، لكان يزيد هو النبي بعده. يقول الفرزدق:

ولو كان بعد المصطفى من عباده نبي لهم منهم لأمر العزائم

لكنت الذي يختارُهُ الله بعده لحمل الأمانات الثقال العظائمِ

شعر الشيعة: كلمة شيعة تعني لغة القوم المجتمعون على أمر ما فيتبع بعضهم بعضا، وشيعة الرجل أتباعه وأنصاره الذين يؤيدونه ويحيطون به.

واكتسبت كلمة شيعة مدلولا خاصا، فأصبحت تعني كل من يوالون الإمام عليا وأبناءه من بعده.

والشيعة تاريخيا، هم فرقة من المسلمين قالوا بان الإمام علي بن أبي طالب هو الإمام والخليفة بعد الرسول، ثم جعلوا بعد ذلك الإمامة في أبنائه من بعده.

أما سياسيا، فقد وجد الشيعة في السنة الحادية عشرة للهجرة، عندما توفي النبي، وأجمع عدد من كبار الصحابة على تأييد علي في الخلافة.والخلافة في نظرهم منصب ديني سام، وركن من أركان الدين، وقاعدة الإسلام، وليست من المصالح العامة التي تفوَّض إلى نظر الأمة، ولا يجوز لنبي إغفال هذا الركن، ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام أو الخليفة ممن عصمهم الله من الكبائر والصغائر.وبما أن الله قد عصم الإمام عن أي خطأ ، فقد اعتبره الشيعة مثالا وقدوة، ومعلما....

ومن المعاني التي وردت في شعر شعراء الشيعة ما يلي:

– حق علي وأبنائه بالخلافة، وقد توجه الشعراء إلى مخاطبة العقل لإقناع الناس بهذه الحجة.

كان شعراؤهم مثقفون ثقافة دينية عالية، تمكنوا من مقارعة شعراء الأحزاب السياسية الأخرى بالدليل والحجة، منهم شاعر الشيعة الكميت بن زيد الأسدي، وهو أول من احتج على صحة المذهب الشيعي، وأقام حججه، وقوى براهينه.

ارتبطت العبادة عند الشيعة بحب آل البيت، وتمكن هذا الحب من قلوبهم حتى صار كأنه ركن من أركان الإسلام، وقد اعتقدوا أن ذلك مظهر من مظاهر حبهم لله ولنبيه- صلى الله عليه وسلم-

يستدل الشيعة بالآية الكريمة: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم. والمراد هنا عليا الواجب طاعته

شعر السجون:

السجون في العصر الجاهلي: كان لملوك الحيرة سجون، ومنها سجن؛ الصنِّين. وتروي الأخبار أن عنترة العبسي، منع الزواج من ابنة عمه عبلة، وقد اشترط عليه عمه أن يقدم له مهرا من النوق العصافيرية التي لا تتوفر إلا عند المناذرة في الحيرة، فتوجه صوب هدفه، فقبض عليه وأودع السجن. فقال:

تُرى علمت عُبَيْلةُ ما ألاقي من الأهوال في أرض العراق

طغاني بالرِّيا والمكر عَمِّي وجار علي في طلب الصَّداق

كما تذكر الكتب أن الشاعر طرفة بن العبد أودع السجن، بأمر من الملك عمرو بن هند. كذلك الشاعر المنخَّل اليشكري سجن على يد ملوك الحيرة.

كما وجدت سجون في الغساسنة، ومكة، واليمن.

أما القبائل العربية فلم يكن لديها سجون، وكان إذا أذنب أحد أفراد القبيلة يغرم بدفع شيء من المال.

السجون في عصر بني أمية: بموت الإمام علي بن أبي طالب، ابتدأ عهد الأمويين، وانتقلت عاصمة الخلافة إلى دمشق. وبويع معاوية بالخلافة. وصار ينكل بالعلويين، وأتباعهم، بل وكل معارض لحكم بني أمية.

وعلى الرغم من أن معاوية اشتهر بحلمه، إلا أن الشدة غلبت على علاقته بالخوارج والعلويين. واستمر الحال نفسه مع ابنه يزيد.

كان الشِّعر بالنسبة لشعراء السجون يمثل تعزية النفس عن المصاب الذي حلّ بهم ، لذا تناولوا في التعبير عن واقع السجن موضوعات متعددة ، دارت حول تجربة السجن الرهيبة ، وحول واقعهم داخل هذه السجون ، وما تركه في نفوسهم من آثار كانت سلبية في الغالب .

معظم شعر السجون يدور في فلك الشكوى والعتاب ، أو وصف المأساة التي يعانون منها ، والحديث عن الذكريات مع المقارنة بين الماضي والحاضر ، ثم الشوق إلى أرض الوطن والأهل والأحبة ، وتناولو اكذلك الاستعطاف

والاسترحام ، مذبذبين بين أمل العودة واليأس والهلاك ، ثم ما خرجوا به من هذه التجربة المريرة التي غيرت مجرى حياتهم .